التوراتيّ القديم وسُوَرها اللَّبِنِيُّ الوضيع الذي كان ينبغي تدعيمه بعد كل مَطْرة. وكانت تمتدّ خارج الأسوار حقول الفستق التي تمثّل ثروتها المتواضعة. ولم تكن مشاريع سيّد «الإمبراطورية» في ذلك الحين سوى شائعات، وكان السكان يتناقلونها بجذل واعتزار من غير أن يجسروا كثيراً على تصديق مثل هذه البَرَكة.

وعندما زارها ابن (بابل) من جديد كان المشهدُ غيرَ المشهد. فما الذي بقي من الضيعة القديمة؟ كومة من الآجرّ المتآكل المُسْمَرّ متجمِّعة على نفسها ومنخورة أطرافها ومبقورة. وحواليها كانت ورشة بلا حدود، وقصور، وحظائر، وبيوت نار مقدّسة، وجادّات مبلّطة تحفّ بها شُجيرات هزيلة، ومنازل للجند، وسورُ حمايةٍ كاملٌ بأبراج رماية، جديدٌ، ومبيَّضٌ وكأنّه أُعِدَّ لعرض عسكري.

كانت المدينة تُدعى مذّاك (غونديشاهبور). وكانت تلك هي على كل حال التسمية الرسمية. إذ ظلّ السكان الأصليّون يكرهون تسميتها على هذا النحو. وستبقى مدينتهم بالنسبة إليهم على الدوام (بيت ـ لاپات). وأمّا المدينة الجديدة التي كانوا لا يغامرون بالذهاب إليها إلا للضرورة فكانوا يدعونها (بِلْ) باسم المعماريّ الذي صمّمها. وهي تسمية ساخرة ووقحة ما كان أحد ليجرؤ على ترديدها على مسامع ملك الملوك.

وإذا كان اعتزاز أهل (بيت ـ لاپات) المضياف قد تحوّل إلى عِداء فلأنّ صنفين حقيرين من النهّابين باتوا يدوسون أرضها بكثرة. الجنود أوّلاً ـ إذ كيف بالإمكان تربية أسرة، أو كيف بالإمكان تعاطي تجارة شريفة بجوار أكواخ تلفظ في شوارعهم كل مساء جحافلها من السكّيرين؟ ثم كبراء المملكة ـ فما إن كشف العاهل عن نيّاته تجاه المدينة حتى أخذ الأمراء والوزراء والأمناء وكبار الطواشيين وعمداء الطبقات يتقاطرون لامتلاك أحسن الأراضي بأبخس الأثمان. وكانت العاصمة حيث هو العاهل، وكان رجال الحاشية يَتْبَعون بطنينهم ودسائسهم وتشريفاتهم.

وأُنجز القصر الذي أمر به «شاهبور» في عشرين شهراً. والحقّ أن آلاف